مجلة مركز بحوث ودراسات

المدينة المنورة

العدد التاسع والعشرون / ربيع ثاني - جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ . أبريل - جون ٢٠٠٩م

٢٩

- الصُفَّة تاريخها-أصحابها.
- الحياة السياسية والاقتصادية بالمدينة المنورة من خلال رحلة بيركهارت ١٢٣٠هـ
- المدينة المنورة في عيون الرحالة الغربيين
- الإعجاز العلمي في دعاء الرسول تصحيح المدينة

المدينة المنورة في عيون الرحالة الغربيين

د. حمزة قاسم
هيئة الإغاثة الإسلامية
برابطة العالم الإسلامي

مقدمـــة حظيت المدينة المنورة منذ القرن الأول الهجري وإلى يومنا الحاضر باهتمام عدد كبير من العلماء والمؤرخين كتبوا عن تاريخها، ومعالمها وجغرافيتها، وأحوالها الاقتصادية والعمرانية والسكانية والدينية والاجتماعية والسياسية.

كما حظيت أيضاً بكتابات عدد من الرحالة الذين قدموا إليها زائرين من شتى أنحاء العالم الإسلامي، وفي فترات زمنية مختلفة، وأعطونا صوراً عن جوانب مختلفة من الحياة فيها.

وتبقى الصورة التي رسمها هؤلاء الرحالة والمؤرخون عن المدينة المنورة في مختلف العصور التاريخية مليئة بالهيبة والإجلال والمحبة والإكبار للمدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى ومثوى رسول الله ﷺ.

وفي هذا البحث صورة أخرى للمدينة المنورة رسمت بأقلام ثلاثة من الرحالة الغربيين الذين قدموا إلى المدينة المنورة في فترات مختلفة، وكتبوا عن عمرانها وسكانها وجغرافيتها وأحوالها المختلفة، فجاءت صورهم مغايرة تماماً للصورة الأولى التي رسمت بأقلام مؤرخين ورحالة مسلمين، وقد أوضح الباحث الصور الموضوعية في كتابات هؤلاء الرحالة، كما أبرز بعض الصور المغلوطة نتيجة تصور مسبق، وتحامل غير موضوعي لتكتمل الصور جميعاً فتشكل لوحة واضحة للمدينة المنورة في فترات تاريخية متباعدة.

التحرير

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أولاً: المدينة كما رآها فارتيما: الوصف العمراني للمدينة المنورة

يمكننا أن نقدر الفترة الزمنية التي زار خلالها فارتيما المدينة المنورة بأنها كانت في الفترة من ٥ -٨/ من شهر مايو ١٥٠٣م، وقد قضى في المدينة ثلاثة أيام فقط، وهي فترة قصيرة جداً إذا ما قورنت بالفترات الزمنية التي قضاها كل من بيركهارت و بيرتن.

فالمدينة على عهد فارتميا كانت تضم حوالي ثلاثمائة منزل، ويحيطها سور من طين، ومساكن المدينة المنورة قد شيدت جدرانها من الحجارة[1]، وهي على هذا مدينة صغيرة إذا ما قورنت بغيرها من المدن، ولم يعط فارتيما أية تفاصيل أخرى عن الوضع العمراني في المدينة المنورة.

ثانياً: المدينة كما رآها بيركهارت:

وصل بيركهارت إلى المدينة المنورة في الثامن والعشرين من يناير ١٨١٥م، وغادرها في الواحد والعشرين من إبريل من السنة نفسها، وعلى هذا فتكون مدة إقامته في المدينة شهرين وأربعة وعشرين يوماً، وهي مدة كافية لإعطاء وصف شامل عن المدينة المنورة وضواحيها.

فمن الناحية الزمنية هناك فارق زمني كبير بين زيارة فارتيما وزيارة بيركهارت قدره ثلاثة قرون، ومن الطبيعي أن تكون قد حدثت تغيرات هائلة في المدينة المنورة، هذه التغيرات التي رآها بيركهارت تتمثل في التالي:

١ - من حيث التقسيم:

تنقسم المدينة إلى قسمين: الأول: المدينة الداخلية، والمراد بها: المدينة

(١) انظر: رحلات فارتيما: ٤٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ذاتها، وتأخذ شكلاً بيضوياً يبلغ محيطه العام (٢٨٠٠) ألفين وثمانمائة خطوة في دائرة كاملة[١].

والثاني: الضواحي: وتمتد إلى الغرب والجنوب من المدينة، وتفصلها عن المدينة من الناحية الغربية ساحة المنافذ.

وهناك ضواح أخرى في الناحية الجنوبية والشمالية والغربية للمدينة[٢].

وللمدينة ثلاث بوابات هي:

أ - الباب المصري: ويقع في الجهة الجنوبية.

ب - الباب الشامي: ويقع في الجهة الشمالية.

ج - باب الجمعة: ويقع في الناحية الشرقية[٣].

تعتبر المدينة من أفضل المدن في الشرق من حيث البناء، وهي تشابه إلى حدّ كبير المدن الشامية، ولكنها تعاني من الإهمال وعدم الصيانة، ولا يوجد فيها إلا القليل جداً من المباني الضخمة، وعامة أبنيتها من الحجارة، وارتفاعها من طابقين، وسقوفها مسطحة، وجدرانها غير مطلية[٤].

وأما الضواحي: فتختلف مساكنها عن مساكن المدينة، فهي غالباً ما تتكون من أحواش محاطة بأبنية منخفضة يفصلها عن بعضها حدائق ومزارع، ويسكنها غالب الطبقات الدنيا (الفقيرة، والبدو)، في مجموعات تتراوح ما بين ثلاثين أو أربعين أسرة.

---

(١) إذا كان متوسط الخطوة الواحدة (٦٠سم) فإن محيط المدينة يبلغ (١٦٨٠م)، انظر: رحلات في شبه الجزيرة العربية: ٢٩٨.

(٢) المصدر السابق، ٣٠١، ٣٠٢.

(٣) المصدر السابق، ٢٩٩.

(٤) المصدر السابق، ٢٩٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كما توجد أحواش أخرى في ضواح أخرى مشتملة على بساتين ممتدة بينها. وتوجد أيضاً ضاحية ذات مبان منتظمة حسنة البناء، في الناحية الغربية في مواجهة الباب المصري. كان يقيم فيها طوسون باشا هو وأمه في منزل مستأجر ملكاً لأحد التجار[١].

سور المدينة:

يحيط بالمدينة كلها سور حجري سميك يتراوح ارتفاعه مابين (٣٥ - ٤٠ قدماً)، وعلى جوانبه ثلاثون برجاً للحراسة.

ويحيط بالمدينة خندق من عمل السلفيين (رجال الدولة السعودية الأولى)[٢].

كما كان للمدينة مدخل يغلق عادة في الليل ويفتح عند انبثاق ضوء النهار[٣].

طرق المدينة:

طرق المدينة ضيقة مظلمة في معظمها، ولا يتجاوز عرضها خطوتين أو ثلاث، وبها عدة طرق رئيسية هي:

أ - الشارع الرئيسي: ويمتد من الباب المصري إلى المسجد النبوي، وبه تقع معظم المحلات التجارية.

ب - شارع البلاط: ويمتدّ من المسجد النبوي إلى الباب الشامي، وأكثر منازله مهدمة، أما الحوانيت التجارية فهي قليلة في هذا الشارع[٤].

---

(١) المصدر السابق، ٣٠١، ٣٠٢.

(٢) المصدر السابق، ٢٨٩، أقام السلفيون هذا الخندق من أجل صد هجمات حملات محمد علي باشا على المدينة المنورة.

(٣) المصدر السابق، ٢٩١.

(٤) المصدر السابق، ٢٩٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ج - شارع العنبرية: وهو شارع عريض يخترق ضاحية في الناحية الغربية في مواجهة الباب المصري والمناخة.

أحياء المدينة:

ذكر بيركهارت جملة كبيرة من أحياء المدينة المنورة، وهي:

حي الساحة، حي كومة حشيفة، حي البلاط، حي زقاق الطوال، حي زقاق الذرة، حي سقيفة شيخي، حي زقاق البقر، وتقع هذه الأحياء بين الشارعين الرئيسيين المؤديين من الباب المصري إلى المسجد النبوي.

وحي الحماطة، حي زقاق الحبس، حي زقاق عانقني، حي زقاق السماهيدي، حارة الميضأة، حارة الشرشورة، حي زقاق البدور، حارة الأغوات، وتقع هذه الأحياء شمال شارع البلاط وتمتد إلى الشمال من المسجد النبوي وحتى باب الجمعة.

وحي ذروان، حي الصالحية، زقاق يا هو، حارة أحمد حيدر، حارة بني حسين، حارة البزوغ، حارة السقيفة، حارة الرصاص، حي زقاق الزرندي، حي زقاق الكبريت، حي زقاق الحجامين، حارة سيدي مالك (حيث منزل الإمام مالك بن أنس)[1]، حارة القماشين، وتمتد هذه الأحياء من باب الجمعة على طول الأجزاء الشمالية للمدينة حتى الباب المصري وشارع السوق الكبير[2].

أما أحياء الضواحي فهي:

حارة العنبرية، حارة الواجهة، حارة السيح، حارة أبي عيسى، حارة

(١) الصحيح أن نسبة الحي لمالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الذي استشهد في أحد، ودفن في ذلك الحي، وليس لمالك بن أنس الفقيه المجتهد.

(٢) المصدر السابق، ٣٠٠.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

مصر، حارة الطيار، حارة نفيسة، حارة الحمدية(الحميدية)، حارة الشحرية(الشهرية)، حارة الخيبرية، حارة الجفر[١].

معالم المدينة:

كانت هناك بعض المعالم البارزة في عهد الرحالة (بيركهارت) أشار إليها وتحدث عن بعضها وهي:

أ) مخزن كبير للغلال، يقع بالقرب من باحة كبيرة في الحي الجنوبي من المدينة.

ب) حمام عام (وهو الحمام الوحيد) الذي لا يبعد كثيراً عن المسجد، وكان الحمام قد بني سنة ٩٧٢هـ بناه أحمد محمد باشا وزير السلطان سليمان[٢].

ج) قلعة المدينة، وتحيط بها أسوار منيعة للغاية وبعض الأبراج العالية، وهي تتسع لستمائة أو ثمانمائة رجل، وقد بنيت هذه القلعة لأغراض عسكرية أهمها: الدفاع عن المدينة المنورة وصد العدوان عنها[٣].

النظرة العامة لبيركهارت عن المدينة:

نلاحظ من خلال ما قدمه بيركهارت من وصف للمدينة المنورة المديح المصحوب بشيء من النقد، والذي ربما يكون قاسياً غير مقبول، مما يجعل المطلع يشعر بأن بيركهارت واقع في تناقض مع نفسه من حيث تقديمه لمعلوماته، ويمكن لنا أن نضع بين يدي القارئ ما استطعنا كشفه وبيانه من خلال كتابات بيركهارت عن المدينة.

---

(١) المصدر السابق، ٣٠٢.

(٢) المصدر السابق، ٣٠٠.

(٣) المصدر السابق، ٣٠١.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

من خلال وصف بيركهارت للمدينة ذكر أن المدينة جديدة البناء، وكل أبنيتها من الحجارة، وهي من أفضل المدن التي رآها في الشرق من حيث البناء، وأنها تلي حلب في هذا المجال، وعلى العموم فالمدينة تعتبر أكثر شبهاً بالمدن الشامية خلافاً لمكة المكرمة التي تعتبر من الناحية العمرانية أكثر شبهاً بمدن شبه الجزيرة العربية.

ويتحدث عن أبواب المدينة، فيقول: (يؤدي للمدينة ثلاث بوابات جميلة هي: الباب المصري في الجهة الجنوبية، ويأتي من حيث الجمال بعد باب الفتوح في القاهرة أجمل باب رأيته في الشرق[١]).

ثم يأتي بعد ذلك فيذكر ما يكاد ينقض ما ذكره بالكامل، فيقول في ذلك: (في الوقت الحاضر تبدو المدينة مهجورة، فالمنازل تعاني من عدم الصيانة، ففي كل أنحاء المدينة يرى المرء المنازل الخربة والأسوار في أمسّ الحاجة للصيانة.

والمدينة بوضعها الحاضر هذا تقدم لنا نفس المنظر المحبط السائد في معظم المدن الشرقية، فلم نعد نرى من بهائها القديم وعظمتها في الأيام الخالية سوى صور باهتة[٢]).

ويقول: (لقد لاحظت نقص الآثار والمباني التذكارية الفاخرة كما الحال في مكة، وبوجه عام فإن سكان الجزيرة العربية لا يتذوقون فن العمارة إلا قليلاً، وحتى زعماؤهم وشيوخهم لا يقيمون إلا في مبان لا تمثل إلا ما هو ضروري.

والقصور التي لازالت موجودة في مكة والمدينة من عمل سلاطين مصر

(١) المصدر السابق، ٢٩٩.

(٢) المصدر السابق، ٢٩٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أو سلاطين إستانبول)[١].

فالحقيقة أن هذا التناقض في تقديم المعلومات يجعل الباحث حائراً في اعتماد أي الرأيين.

ولكن نستطيع القول إنه لا يمكن الأخذ بواحد دون الآخر، وذلك لسببين رئيسين هما:

أ) كانت المدينة تمر بمرحلة حرجة جداً، فقد خرجت لتوّها من حرب طاحنة بين القوات التركية المصرية، وبين القوات السعودية الأولى.

من البدهي أن تكون هناك اهتمامات للناس كشغلهم عن الأمور الكمالية والتفكير في الأمور الترفيهية إلى ماهو أهم، فالكثير منهم غادر المدينة خوفاً من لهيب حرب لا تبقي ولا تذر، تاركاً ما فعله بمشيئة الله، والكثير منهم لم يعد إلى المدينة المنورة واستقر في المكان الذي نزح إليه.

ب) ربما كان ضعف الموارد المالية لأهل المدينة السبب الثاني الرئيس في الانشغال بالضروريات، وعدم الاهتمام بمظاهر البذخ والترف، كما سنلحظ ذلك عند الحديث عن الأحوال الاقتصادية للمدينة المنورة.

ثالثاً: المدينة المنورة كما رآها بيرتن:

قدم بيرتن إلى المدينة المنورة في الخامس والعشرين من شهر يوليو ١٨٥٣م، وغادرها إلى مكة المكرمة في الحادي والثلاثين من أغسطس من السنة نفسها، فيكون بذلك قد قضى قرابة ثمانية وثلاثين يوماً، وقد جاءت رحلة بيرتن إلى المدينة بعد رحلة بيركهارت بثمانية وثلاثين عاماً، فيا

(١) المصدر السابق، ٣٠٠، ٣٠١.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ترى هل هناك ما استجدّ في المدينة خلال هذه الفترة؟ وهل حدث فيها تغير يذكر أم لا؟ وهذا ما سنلقي عليه الضوء..

أولاً: تقسيم المدينة:

كانت المدينة كما رآها بيرتن تتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية، هي:

١ - المدينة ذاتها.

٢ - القلعة.

٣ - ضاحية مساحتها أصغر بقليل من إجمالي مساحة الأجزاء الثلاثة.

والمدينة ذاتها أكبر من السويس بحوالي الثلث، أو نصف مساحة مكة المكرمة تقريباً[١].

أما القلعة: فتقع في الزاوية الشمالية الغربية للمدينة، ويعسكر فيها قرابة أربعمائة رجل من جند المشاة تشكل حامية الحصن[٢].

أما الضواحي: فتقع إلى الجنوب والغرب من المدينة.

فمن ناحية الجنوب يفصل الضواحي عن السور طريق عريض يطلق عليه درب الجنازة. أما من ناحية الغرب فيفصل سهل المناخة المدينة عن الضاحية بطول ثلاثة أرباع الميل تقريباً، وبعرض يقرب من ثلاثمائة ياردة.

وهذه الضواحي تشغل مساحة من الأرض أكثر من تلك المساحة التي تشغلها المدينة ذاتها[٣].

وللمدينة أربع بوابات هي:

١ -**الباب الشامي**: ويقع في الجانب الشمالي الغربي للسور، ويفضي

(١) انظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز٢/٩٦.

(٢) المصدر السابق، ٢/٩٨ -٩٩.

(٣) المصدر السابق، ٢/٩٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إلى جبل أحد، وقبر حمزة رضي الله عنه.

٢ -**باب الجمعة**: ويقع في السور الشرقي، ويفضي إلى الدرب النجدي ومقبرة البقيع.

٣_ **باب الضيافة**: ويقع بين البابين الشامي والجمعة تجاه الشمال.

٤ -**الباب المصري**: ويقع في الغرب، ويفضي إلى سهل يسمى(بر المناخة) وقد شيد على البابين الشرقي والمصري مبنيان ضخمان جميلان، لكل منهما برجان متقاربان يقيم فيهما العسكر[١].

ثانياً: مساكن المدينة:

تحدث بيرتن عن المساكن الخاصة والمباني العامة، فالمساكن التي تخص الفقراء في كل مكان متشابهة بشكل عام.

وأما مساكن الطبقة العليا فهي متأثرة بالفخامة التركية والمصرية، ومساكن الطبقة الوسطى مزيج من الفخامة والبساطة[٢].

فمنازل الناحية الشرقية حسنة البناء، مسقوفة بسقوف مستوية، تتألف من طابقين، والمواد المستخدمة في البناء عادة هي: خام البازلت، والطوب الأحمر، وجذوع النخل، وأفضل المنازل تلك التي تحيط بها باحات وحدائق صغيرة بها آبار.

ويشيع بالمدينة استخدام المشربيات (الشرفات المقفلة بخشب مثقب).

وأما النوافذ فهي مجرد فتحات في الجدران مزخرفة بالزخارف العربية المعتادة في المدن العربية، ولها ضلف خشبية لإغلاقها[٣].

---

(١) المصدر السابق، ٢/٩٩.

(٢) المصدر السابق، ٢/٢١.

(٣) المصدر السابق، ٢/٩٧.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وأما المساكن في الضواحي فهي مصممة على شكل أحواش، والحوش: يضم عدة مساكن من طابق واحد تفتح على ساحة مكشوفة، ولكل حوش باب خشبي متين يغلق ليلاً؛ لمنع السرقة، ولتمكين سكان الحوش من الدفاع ببسالة، ومعظم سكان هذه الأحواش من البدو المستقرين، ومن المنشقين (الشيعة)[١].

وأما المباني العامة فهي قليلة في المدينة، وتوجد بها أربع وكالات رئيسية:

منها: وكالة باب السلام بالقرب من الحرم النبوي، ووكالة الجبرتي، وكلتا الوكالتين داخل الباب المصري.

كما توجد خانات للقوافل تستخدم في الأساس كمخازن، ونادراً ما تستخدم كمحل للإقامة.

أما المباني العامة الأخرى فهي عبارة عن مقاهٍ قليلة بائسة[٢].

ثالثاً: سور المدينة:

كان سور المدينة في زمن بيرتن بحالة ممتازة، ويتخذ شكلاً بيضوياً غير منتظم، وقد بني من الجرانيت والكتل الصخرية البركانية التي صُفّ بعضها فوق بعض بإحكام، وثبتت بالجبس، وقد زود السور بعدد من المتاريس ـ كوة أو فتحة طولية ـ، والشراريف ـ وهي: فتحات تتخذ الواحدة منها شكل ثلاثة أوراق الشجر ـ لاستخدامها في إطلاق النار، وأبراج نصف دائرية قد زودت أيضاً بفتحات طولية وكوات منظمة[٣].

---

(١) المصدر السابق، ١٠١/٢.

(٢) المصدر السابق، ٩٧/٢.

(٣) المصدر السابق، ٩٧/٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

رابعاً: طرق المدينة:

يذكر بيرتن أن الطرق داخل المدينة كانت سيئة ويصفها بقوله: (وفي الداخل نجد الشوارع ـ كما هو متوقع دائماً في هذه البلاد الحارة ـ مظلمة وضيقة، وليست مرصوفة إلا في مواضع قليلة ـ وهو أمر يحث على الاستنكار ـ وهي مغطاة بشكل عام بأتربة سوداء قد رشت بالماء جيداً ودكت بعناية لتكون صلبة، وأفضل الطرقات وأكثرها تلألؤاً هي التي تؤدي إلى المسجد النبوي[١].

ويوجد في المدينة مابين خمسين إلى ستين شارعاً بما فيها الممرات الضيقة[٢]. ولم يذكر لنا أسماء الطرقات في المدينة سوى طريقين:

أ) طريق العنبرية: وهو طريق عريض مترب، يمتد من بوابة العنبرية مروراً بالحرة الغربية وحي العنبرية ومعظم حي المناخة، ثم يمتد ليتصل بجسر مقام على بطن سيل السيح، ويبلغ عرضه في بعض المواضع خمسة وخمسين قدماً، والجسر: عبارة عن حجارة مقطعة غير مصقولة مقنطرة قليلاً، ثم يمر الطريق ببر(سهل)المناخة ليتصل بطريق مستقيم بالباب المصري[٣].

ب) درب الجنازة: وهو طريق عريض يفصل الضواحي الجنوبية عن سور المدينة، وسمي بهذا الاسم لأن جثث الخارجين عن القانون[٤] لا يسمح لها

---

(١) المصدر السابق، نفس الموضع، وربما يعود سبب استنكار بيرتن لهذا الوضع بالنسبة لطرقات المدينة كونها إحدى المدن المقدسة عند المسلمين، فالمتوقع في مثل هذه المدن أن يكون الاهتمام بها فائقاً بحيث يكون متلائماً ومكانة المدينة المنورة.

(٢) المصدر السابق، ١٤/٢.

(٣) المصدر السابق، ١٤/٢.

(٤) قد يكون المراد بهم: الشيعة.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بالمرور داخل المدينة، فيضطر حاملو الجثة إلى السير بها من طريق خاص هو (درب الجنازة)، حيث تدفن في المقابر المخصصة لها بالقرب من باب الجمعة[١].

خامساً: أحياء المدينة:

ذكر بيرتن أن المدينة مابين خمسين إلى ستين حياً، ولكنه لم يذكر لنا أياً من هذه الأحياء ولا حتى مواقعها[٢].

ولكنه وصف شكل أحياء ضواحي المدينة، وبينّ أنها عبارة عن تجمعات من القرى المسورة تتخللها المزارع والبساتين[٣].

سادساً: معالم المدينة:

أشار بيرتن إلى عدد من المعالم التي رآها خلال زيارته للمدينة، وهي تتمثل في التالي:

أ) بقايا سبيل ضخم قديم للماء، ويقع في الشمال من المدينة المنورة.

ب) حصن مرتفع يقع في الزاوية الشمالية الغربية لسور المدينة[٤].

ج) حقول من جفاء خبث البازلت الأسود ذي الأصل البركاني، وتقع في الجهة الشرقية إلى الجنوب[٥].

د)حمام رائع للعموم، يقع في حرة زروان داخل المدينة، فيها شيء من الفخامة والترف التي كانت موجودة في منشآت إستانبول[٦].

---

(١) المصدر السابق، ٩٩/٢.

(٢) المصدر السابق، ٩٨/٢.

(٣) المصدر السابق، ١٠١/٢.

(٤) المصدر السابق ، ١٢/٢.

(٥) المصدر السابق، ١٣/٢.

(٦) المصدر السابق، ٩٧/٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

هـ) الخاصكية: وهو المقر الرسمي لمحافظ المدينة(حاكمها)، وهو مقام على سهل قريب من بر المناخة الغربية عند مدخل العنبرية (المدخل الغربي)[١].

النظرة العامة لبيرتن عن الناحية العمرانية في المدينة:

كانت المدينة في أيام بيرتن مسرحاً للصراع بين قوات الدولة السعودية وقوات محمد علي حاكم مصر، مما أثر ذلك على نهضة المدينة العمرانية، حيث يرى بيرتن أن دخول القوات السلفية إلى المدينة كان أحد أسباب تخلف النهضة العمرانية في المدينة، ولما تمكنت القوات التركية المصرية من استعادة السيطرة عليها مرة أخرى ازدهرت المدينة بسرعة.

ويقول في ذلك: (وسرعان ما سقطت المدينة المنورة في أيدي الوهابيين (السعوديين)، وبعد استعادتها سرعان ما ازدهرت، أما الآن فمن المحتمل أن تكون مدينة صغيرة مريحة منتعشة كأية مدينة على شاكلتها في الشرق)[٢].

ولكنه يصدر في النهاية حكماً عاماً على الناحية العمرانية، متهماً فيه العرب عموماً بقلة الخبرة، وبساطة الذوق، وما كان ملاحظاً من فخامة وأبهة فهو إما مستورد أو من عمل فنانين أجانب، يقول في ذلك مانصه: (لا بدّ من التنويه هنا إلى أن العرب ليس لديهم إلا فكرة بسيطة عن الفخامة والأبهة في مجال العمارة، سواء بالنسبة للمباني العامة أو الخاصة، فما يستلفت نظر المسافر في الحجاز هو دائماً إما مستورد، أو من عمل فنانين أجانب، ويبدو هذا من ذوق الناس الذي تتجلى فيه البساطة،

(١) المصدر السابق، ٩٩/٢.

(٢) المصدر السابق، ٩٧/٢ -٩٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بالإضافة إلى تميزهم بدون شك بالتدبير والتوفير)[١].

المدينة بين بيركهارت وبيرتن:

كانت زيارات بيركهارت وبيرتن ـ كما لاحظنا ـ في زمنين متقاربين، وكلاهما كانت زيارته للمدينة بعد هدوء الصراع المسلح بين القوات المصرية والقوات السعودية، فلم يكن في زمنهما أيُّ بوادر لصراع على حكم المدينة.

وما يهمنا هنا معرفة مالحق بالمدينة من تطور أو نهضة عمرانية خلال هذه الفترة من الزمن، والتي سبق أن أشرنا إلى أنها كانت قرابة ثمانية وثلاثين عاماً.

ونلاحظ أن بيركهارت أسهب في الحديث عن بعض الجوانب في المدينة كالطرق والأحياء، بينما اكتفى بيرتن بالإشارة إليها كأرقام فقط دون ذكر مسميات، فلربما رأى بيرتن الكفاية فيما ذكره بيركهارت من بيان لأهم طرقات المدينة وأحيائها، فلذلك عدل عن ذكر مسمياتها.

كما نلاحظ أن هناك الكثير من أوجه التشابه في الوصف بين بيركهارت وبيرتن إلا في مواضع قليلة جداً، فتقسيم المدينة في زمن بيركهارت هو التقسيم ذاته في زمن بيرتن مع اختلاف يسير بينهما وهو: أن بيركهارت لم يعتبر قلعة المدينة جزءاً من تقسيمات المدينة، بينما وجدنا بيرتن يعتبرها من أقسام المدينة المنورة.

وربما يكون السبب في ذلك عائداً إلى طبيعة كل من الرجلين، فبيركهارت كان رجلاً مدنيّاً همّه البحث في كل ما يتعلق بالأمور المدنية، أما المشاهد العسكرية فيعتبرها بيركهارت من الأمور المستقلة

(١) المصدر السابق، ١٠٠/٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عن الناحية المدنية؛ ولذلك اعتبرها معلماً من معالم المدينة.

أما بيرتن فهو رجل عسكري، وفي نظره كل ما له صلة بالمدينة فهو من المنشآت سواء أكان منشأ مدنيّاً أو عسكرياً، فهو جزء لا يتجزأ من المدينة؛ ولذلك اعتبر القلعة قسماً ثالثاً من أقسام المدينة المنورة.

وبالنسبة لبوابات المدينة فقد كان هناك بعض التطور فيها، فقد تمّ استحداث بوابة رابعة هي بوابة الضيافة، كما تمّ استحداث مبنيين عند كل من باب الجمعة والباب المصري، وهذان المبنيان عبارة عن مراكز عسكرية مهمتها مراقبة حركة الدخول والخروج، ورصد كل ما يمكن أن يؤدي إلى زعزعة الأمن والاستقرار في المدينة المنورة، وهذه لم تكن موجودة في زمن بيركهارت.

أما مساكن المدينة المنورة فهي متشابهة، ولم يحدث فيها كبير تطور سوى انتشار بعض اللمسات الجمالية في الأبنية زمن بيرتن كالمشربيات، والنوافذ المزخرفة.

ولكن أعود وأقول: إن بيركهارت لم يتح له التجول في المدينة بسبب إصابته بالحمى، حيث بقي حبيساً في فراشه طوال ثمانية أسابيع، وكان يستقي المعلومات عن طريق المشافهة في أغلب الأحيان، خلافاً لبيرتن الذي استقى معلوماته عن طريق المشاهدة والمشافهة.

أما بالنسبة لأحياء المدينة وطرقاتها فالوصف العام يكاد يكون متشابهاً إلى حد كبير، غير أن بيركهارت أسهب في ذكر أبرزها، بينما أغفل بيرتن ذكرها تماماً، ومن حيث النظرة العامة لكلا الرحالتين فتكاد تكون متشابهة أيضاً إلى حد كبير، فهما متفقان في أن المظاهر العمرانية في المدينة كانت على جانب كبير من البساطة وعدم الفخامة،

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وأرجعا سبب ذلك إلى قلة الخبرة في البناء لدى أهل المدينة من ناحية، وإلى عدم ميل المدنيين إلى إبراز مظاهر الأبهة من ناحية أخرى، وما كان موجوداً من أبنية فاخرة فإنما يعود سببه إلى ما قام به سلاطين مصر وتركيا في ذلك الوقت.

ونلاحظ أن بيرتن كان اهتمامه منصّباً في الغالب على كل ما له مساس بالناحية العسكرية من حيث القلاع والحصون والأبراج؛ بسبب طبيعة المهمة التي قدم بيرتن من أجلها، وبحكم عمله ضابطاً في الجيش البريطاني.

المدينة المنورة من حيث الموقع والوصف الجغرافيين:

موقع المدينة:

تقع المدينة على حافة الصحراء العربية الكبرى، بالقرب من سلسلة الجبال التي تقطع المنطقة من الشمال إلى الجنوب[١].

ويرى بيرتن أن المدينة تقع على حدود نجد فوق الهضبة الواسعة التي تشكل وسط شبه الجزيرة العربية[٢].

وهي تقع عموماً على رصيف منحدر انحداراً هيناً من السهل، جانبه المنخفض عند القاعدة الجنوبية لجبل أحد، وتسمى هذه الناحية بالمسفلة أو السافلة، بينما تسمى الناحية الأخرى المرتفعة بالعوالي، وهي السهول المحيطة بقباء والمناطق الشرقية[٣].

وأما من الناحية الاستراتجية: فيرى بيركهارت أن المدينة بحكم

(١) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ٢٩٦.

(٢) انظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ٨٨/٢.

(٣) المصدر السابق، ٩٠/٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

موقعها المتوسط في منطقة الحجاز تعتبر حصن الحجاز الرئيسي[١]؛ لذا كان التنافس عليها شديداً بين القوات التركية المصرية، والقوات السلفية، حيث إن المدينة تعتبر بوابة العبور الأساسية للحجاج القادمين من تركيا وبلاد الشام، لذا فالسيطرة عليها معناه السيطرة على أكثر طرق الحج أهمية وحيوية.

حدود المدينة المنورة:

للمدينة المنورة حدان، **الأول: جغرافي**، يتمثل في التالي:

أ) من الشمال: تحدها سلسلة الجبال التي تقطع شبه الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب، وفي هذه الجهة يوجد جبل أحد الذي يبعد مسافة ساعة عن المدينة المنورة في شمال الشمال الشرقي إلى الشمال الشرقي[٢].

ب) من الجنوب: فهي استواء تام على مدى الأفق[٣].

ومن الجنوب الغربي: فيحد سهل المدينة حيود من بازلت شكّله خبث البراكين، ونتوء صخري يطلق عليه جبل عير، ويقع على بعد حوالي ثلاثة أميال من المدينة[٤].

ج) من الشرق: تحيط بها أرض سوداء، ناتجة عن حمم بركان سبق ثورانه[٥].

وهي عبارة عن تلال داكنة منخفضة يقطعها الدرب الشرقي عبر نجد إلى مكة[٦].

---

(١) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ٢٩٨.

(٢) المصدر السابق، ٢٩٧.

(٣) المصدر السابق، ٢٩٧.

(٤) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب: ٢٩٨، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز: ٨٩/٢.

(٥) انظر: رحلات في شبه الجزيرة العربية ٣٣٣.

(٦) انظر: المصدر السابق، ٢٩٨، ورحلة بيرتون إلى مصر والحجاز: ٨٩/٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

د) من الغرب: يحدها سهل يبدأ من وادي العقيق ويمتد مسافة ثلاثة أميال[١].

ويرى بيرتن أن الحدود الغربية للمدينة تتمثل بمسجد ذي الحليفة[٢].

وتحيط البساتين ومزارع النخيل بالمدينة من ثلاث جهات تاركة الجهة الجنوبية من السهل حيث الطريق إلى مكة، وتكون طبيعة الأرض في هذه المنطقة صخرية لا يمكن زراعتها، وتمتد هذه الحدائق والبساتين مسافة ستة أميال أو ثمانية[٣].

الثاني: حد نبوي (منطقة الحرم):

تقع المدينة ضمن دائرة قوامها(١٢ميلاً)، تمتد شمالاً لمسافة ثلاثة أميال عند جبل أحد، أو جبل ثور (وهو: تل يقع خلف جبل أحد بمسافة غير بعيدة).

وتمتد جنوباً إلى جبل عير (على مسافة ثلاثة أميال من المدينة)[٤].

وهذه منطقة الحرم التي لا يجوز لأحد أن يقوم فيها بأي عمل من الأعمال المنافية للشريعة الإسلامية من قتل أو غيره، وكذا الصيد وقطع الشجر، وكذا دخول غير المسلمين[٥].

---

(١) انظر: رحلات في شبه الجزيرة العربية ٣٣٣.

(٢) انظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ٨٩/٢.

(٣) انظر: رحلات شبه الجزيرة العرب ٢٩٨، ٣٢٧.

(٤) انظر: المصدر السابق، ٣٣٣، ورحلة بيرتون إلى مصر والحجاز٨٩/٢.

(٥) انظر: رحلات شبه جزيرة العرب، ٣٣٣. وقد ورد في السنة النبوية أحاديث كثيرة تدل على هذا المعنى وهي صريحة في هذا الباب، منها: حديث علي رضي الله عنه عند البخاري ومسلم: (المدينة حرم مابين عير إلى ثور فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) انظر: صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب إثم من تبرأ من مواليه ٢٤٨٢/٦، صحيح مسلم، كتاب العتق، باب فضل المدينة ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة ٩٩٤/٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

جغرافية المدينة المنورة:

المدينة المنورة: عبارة عن هضبة ذات رمال ملحية في بعض مواضعها، وهي في العادة عبارة عن طباشير أبيض ورمال اختلطت بطَفَل أو طين، كما يتوافر فيها الجير.

وسهل المدينة له جانبان، علوي وسفلي.

أما الجانب العلوي: فهو الذي يطلق عليه العوالي، وهو ما يحيط بقباء والمناطق الشرقية، وأما الجانب السفلي: فهو من الناحية الجنوبية لجبل أحد[١]، وأرض المدينة وافرة المياه[٢]، أما تربة المدينة فهي رطبة، وتحتوي على النترات في الشتاء، كما تحتوي على كلس من نوع غير جيد، وهي جافة وملتهبة صيفاً[٣].

مناخ المدينة:

مناخ المدينة شديد البرودة خلال شهور الشتاء، ويضطر الناس لاستخدام وسائل التدفئة داخل بيوتهم، وتهب على المدينة الرياح والعواصف الباردة من الصحراء الشرقية مسببة الأذى والإزعاج، وأما صيف المدينة فهو شديد الحرارة، مع جفاف في الهواء.

وأما الأمطار فيبدأ هطولها في المدينة في شهر أكتوبر، وتستمر ستة أشهر تتخللها فترات انقطاع للمطر غير قليلة، وغالباً ما تكون مصحوبة بعواصف شديدة تستمر يوماً واحداً وربما يومين على الأكثر، وقد يمر فصل الشتاء بأكمله دون أن يسقط المطر إلا مرة واحدة، خلا زخات خفيفة لا تدوم طويلاً.

---

(١) انظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ٨٩/٢ -٩٠.

(٢) المصدر السابق، ٨٩/٢.

(٣) المصدر السابق، ١٠٠/٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أما في فترة الاعتدالين (الربيع والخريف) تصبح العواصف البرقية من الأمور المألوفة.

ويذكر بيرتن أن هطول الأمطار في المدينة يكون عادة في الليل بالنسبة لفصل الشتاء، ويكون في الصباح في فصل الربيع، وفي المساء في فصل الصيف[١].

التشكيلات والتجمعات السكانية في المدينة المنورة:

أ) عدد سكان المدينة:

قدّر بيركهارت عدد سكان المدينة المنورة ما بين(١٦٠٠٠) ستة عشر ألفاً إلى (٢٠٠٠٠) عشرين ألفاً بمن فيهم سكان الضواحي، أما المدينة نفسها فقد قدّر عدد سكانها بحوالي عشرة آلاف إلى اثني عشر ألفاً[٢].

أما بيرتن فكان متناقضاً في تقديره، وذكر: أن أفضل المصادر تقدر تعداد سكان المدينة المنورة بحوالي(١٥٠٠) ألف وخمسمئة نفس داخل السور، وحوالي (١٠٠٠) ألف نفس خارج السور، ويعقب على ذلك بقوله: (أظن أن كلا التقديرين مبالغ فيه، فالرقم الأول قد يكون (٨٠٠) ثمانمئة، أما خارج السور فربما كان الرقم المقبول هو(٥٠٠) خمسمئة، وفي الوقت نفسه لابدّ أن أعترف أنني لم أحصهم).

ثم يعود بيرتن فيقول: (إن الأتراك قدّروا عدد المنازل بستة آلاف منزل، وعدد السكان بثمانية عشر ألفاً).

ويقول: (إذا افترضنا أن عدد السكان (١٦٠٠٠) ستة عشر ألفاً منهم

(١) انظر: رحلات في شبه الجزيرة العربية ٣٦٤، ورحلة بيرتون إلى مصر والحجاز٩١ -٩٢.

(٢) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ٣٦٥.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

(٩٠٠٠) تسعة آلاف يقطنون المدينة ذاتها، و(٧٠٠٠) سبعة آلاف في الضواحي والقلعة، فمعنى هذا أن في كل منزل ما يزيد قليلاً عن اثني عشر نفساً، وهو تقدير مقبول بالنسبة لمدينة عربية، حيث المساكن واسعة والعبيد كثيرون[١]).

وهنا نلاحظ أن بيرتن رجح التقدير الثاني، وهو الأقرب للواقع.

ب) التركيبة السكانية لأهل المدينة:

تعتبر التركيبة السكانية في المدينة المنورة في الفترة ما بين مطلع القرن التاسع عشر الميلادي وحتى منتصفه تركيبة معقدة، فهو مجتمع متعدد الأعراق والأصول، ولكل من هؤلاء وضعه الخاص الذي يميزه عن بقية الأعراق الأخرى، وبإلقاء نظرة على ما قدمه لنا بيركهارت و بيرتن من معلومات عن سكان المدينة في هذه الفترة يتبين لنا مدى الاختلاف في التركيبة لأهل المدينة.

ويمكن أن نقسم أهل المدينة إلى قسمين رئيسين:

القسم الأول: العرب.

وهم بدورهم ينقسمون إلى قسمين:

أ) أهل المدينة: ويطلق عليهم الأنصار، أو الأسر الأصيلة، وهم قلة كما ذكر بيركهارت، وذكر أنه لم يكن يوجد في زمنه من هؤلاء سوى عشر أسر، وهم فقراء، ويعمل غالبهم في الزراعة، ولكن بيركهارت لم يذكر لنا أياً من هذه الأسر[٢].

أما بيرتن فيذكر لنا من هذه الأسر أربع أسر هي:

---

(١) انظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ٩٨/٢.

(٢) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ٣٤١.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

١ - بيت الأنصاري: وهم من سلالة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وبيدهم مفاتيح الحجرة، ومنهم أئمة الحرم النبوي.

٢ - أسرة أبي الجود: ومنهم الأئمة والمؤذنون.

٣ - بيت الشعاب: وأكثرهم يعمل في التجارة.

٤ - بيت القراني: ويعملون في التجارة[١].

ب)العرب الوافدون على المدينة:

وهؤلاء بدورهم ينقسمون إلى قسمين:

١ - الوافدون من داخل شبه جزيرة العرب، وأبرزهم:

أ) الأشراف: وهؤلاء ينقسمون إلى قسمين

١) الحسنيون: نسبة إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ويطلق عليهم لقب السادة العلوية، وعددهم كبير، ومعظمهم قادم من مكة خلال الحروب التي شنها الأشراف للسيطرة على المدينة، وكانوا في غالبيتهم ينتمون إلى طبقة العلماء.

ويوجد منهم في المدينة حوالي مائتي أسرة، ويعملون في وظائف بالمسجد النبوي، أو يشتغلون في التجارة[٢].

٢)الحسينيون: نسبة إلى الحسين بن علي رضي الله عنهم، وهم طبقة الأشراف العسكريين، ولهم قوة ونفوذ فائقان في المدينة، ويحصلون على جلّ الدخل المالي للمسجد النبوي، لأن مهمتهم الإشراف على القبر النبوي.

وهم يتوزعون على ست أو سبع أسر في المدينة، ويعيشون في حوش يقال له: حوش ابن سعد، كما يوجد منهم حوالي ثلاث وتسعين أو أربع وتسعين

(١) انظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ١٣٩/٢.

(٢) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ٣٤١، ورحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ١٤١/٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أسرة في السويرقية[١].

ب) العباسيون: من سلالة العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، ويطلق عليهم اسم: (الخليفية) وهؤلاء لم يكن موجوداً منهم سوى أسرة واحدة، يعملون أئمة في الحرم النبوي، كما يتولون مهمة الإشراف على قبر حمزة رضي الله عنه[٢].

ج) الصديقية: من سلالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وعددهم قليل جداً.

د) بنو النجار: ولا تتوفر عنهم أية معلومات[٣].

هـ) البدو: من قبيلة بني علي[٤].

و) العرب القادمون من اليمن وحضرموت وسوريا.

٢) العرب الوافدون من خارج شبه الجزيرة العربية:

أ) المصريون: وأعدادهم كبيرة.

ب) المغاربة[٥].

القسم الثاني: الوافدون من غير العرب، وينحدر هؤلاء من أصول كثيرة أبرزها:

١) الأتراك: وينحدرون من المناطق الشمالية لتركيا، وهناك قسم من الأتراك يطلق عليهم: (الصوفات) وهم أنصاف أتراك، أي: من كان آباؤهم

---

(١) رحلات في شبه جزيرة العرب ٣٤١، ورحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ١٤١/٢.

ملاحظة: يطلق أهل المدينة مسمى الأشراف ويراد بهم الحسينيين، والسادة ويراد بهم الحسنيين.

(٢) رحلات في شبه جزيرة العرب ٣٤٢، ورحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ١٤٢/٢.

(٣) انظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ١٤٢/٢. ويلاحظ أن بيرتن قد ذكر بني النجار دون أن يبين أصولهم، والمعروف تاريخاً أن بني النجار يعدون من الأنصار، فكان الأولى به أن يذكرهم ضمن عوائل الأنصار.

(٤) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ٣٤٢.

(٥) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ٣٤٣، ورحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ١٤٣/٢

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تركاً وأمهاتهم عربيات، وكانت بيدهم سلطة الحكم.

٢) الأكراد.

٣) الهنود: ويعملون في العطارة[١].

٤) الأفارقة: ويطلق عليهم مسمى التكارنة.

٥) أهل السند: وعددهم كبير.

٦) البلوش.

٧) الأفغان.

٨) الداغستانيون.

٩) الجاويون، وهم قلة[٢].

القسم الثالث: الرقيق، وغالبهم من الزنوج والأحباش، وهم مسخرون للخدمة[٣].

وهناك تقسيم ثان لسكان المدينة قائم على الناحية الدينية والمذهبية، فأهل المدينة ينقسمون بناء على ذلك إلى قسمين:

١) السنة: وهم غالب أهل المدينة.

٢) الشيعة، وهؤلاء قسمان:

أ) النخاولة: وغالبيتهم من الفرس ويطبقون عقيدة التقية من حيث إظهار سنتهم وإخفاء تشيعهم، وأطلق عليهم لقب النخاولة؛ لكون غالبهم يعمل في زراعة النخيل. وأعداد النخاولة كبيرة، وهم محبون للقتال ومولعون بالحرب إلى درجة كبيرة، وكان لهم دور واضح في مقاومة الدولة السعودية الأولى.

---

(١) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ٣٤٣، ورحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ١٤٣/٢.

(٢) انظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ١٤٣/٢.

(٣) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ٣٥٣، ورحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ١٤٨/٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويمارس هؤلاء الأعمال الدنيا، كالجزارة، وكنس الشوارع، والزراعة.

وعلى العموم هم طائفة محتقرة لدى الناس لما عرف عنهم من بغضهم لأبي بكر وعمر.

ب) الشيعة الزيدية: وهم البدو من قبيلة بني علي[١].

الصفات الخلقية والأخلاقية لسكان المدينة:

أولاً: الصفات الخلقية:

لقد عقد بيركهارت وبيرتن فصلاً خاصاً للحديث عن سكان المدينة المنورة، إلا أن الحديث عن الصفات الخلقية لم يكن له أي ذكر عند بيركهارت.

أما بيرتن فقد ألمح إلى شيء من ذلك نجمله في النقاط التالية:

١) ارتفاع عظام الوجنات، على الرغم من شيوع الوجنات الغائرة، وبخاصة لدى العرب الأصول كما يشيع بينهم وجود الوجنات الممتلئة.

٢) صغر العيون مع ميلها للاستدارة أكثر من ميلها للطول مع نظرات ثاقبة ومتقدة عميقة، وتميل للون البني أكثر من ميلها للسواد.

٣) صغر الرأس.

٤) حسن ملامح الأذن.

٥) الوجه طويل وبيضوي رغم شيوع الوجنات الغائرة والفك الطويل

---

(١) انظر: رحلات شبه جزيرة العرب ٣٤٢، ورحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ١٤٠/٢. وقد أفادني أحد رجالات المدينة بأن النخاولة في أصلهم كانوا عبيداً تم استقدامهم للقيام بأعمال الخدمة في المدينة المنورة، وكانوا يجبرون على لبس ثياب زرقاء اللون؛ ليتم تمييزهم عن بقية سكان المدينة، وأن الحال بقي كذلك إلى ما قبل خمسين عاماً من الآن.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الهزيل.

٦) علو الجبهة، وعرضها، وبروز عظامها، ومنسحبة للخلف انسحاباً تدريجياً خفيفاً.

٧) واللحية والشارب خفيفان، فسبلة اللحية خفيفة الشعر جداً، أو لا شعر فيها على الإطلاق، أما الشارب فمن خصلتين من الشعر متصلتين باللحية من الجانبين، وعلى العموم فهي أقل كثافة بقليل من لحية البدوي.

٨) الشفاه أكثر امتلاء بين العرب الخلص و أكثر شهوانية[١]، وأقلُ إحكاماً وتناسقاً.

٩) الملامح عريضة، والأطراف أكثر سمنة و أقوى عظاماً[٢].

وهذه أبرز الصفات التي أشار إليها بيرتن، وهي صفات يكاد يتميز بها أغلب العرب، ولكنه في الحقيقة أغفل جانباً مهماً أثناء حديثه عن الصفات الخلقية وهو تعدد الأعراق والأجناس في المدينة، ولكل من هذه الأعراق صفات تميزه عن الآخر، فصفات القادمين من تركيا تختلف عن صفات القادمين من الهند ومنطقة جنوب وشرق آسيا، الذين لهم أشكال معروفة لا تخفى على أحد، وهؤلاء يختلفون في صفاتهم عن صفات العرب، فكان الأولى أن ينبه على هذه المفارقة.

ثانياً: الصفات الأخلاقية:

أ) رؤية بيركهارت:

يعترف بيركهارت بأنه من الصعب على الأوروبي أن يحكم على الشعوب الشرقية من حيث عاداتها وأفكارها ومعتقداتها المختلفة جداً عن

---

(١) لا أدري ماذا يقصد بورتن بقوله هذا، ولكنه أعلم بعينه الأوروبية التي اعتاد عليها في بلاده، والتي تجعل كل شيء مباحاً عندهم ما دام أن هناك توافقاً بين الطرفين.

(٢) انظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ١٤٩/٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عاداته وأفكاره ومعتقداته، ويعزو السبب في ذلك إلى عدم معرفة الأوروبي بلغة أهل البلاد.

ومع هذا يدعي بيركهارت بأن لديه الخبرة والدراية للحكم على هذه الشعوب بشكل عام، فوصفهم بأنهم شعب ينقصهم الفضيلة والشرف والعدل، ولا يتحلون إلا بالقليل من التقوى، وأقل منها الإحسان والإيمان، وانعدام الأمانة فيما بينهم إلا بين الأشخاص المملقين والمعتوهين[1].

والحقيقة أننا لسنا راضين عن مثل هذا الموقف الذي يتسم بالتجني والتحامل الشديدين اللذين نبعا عن مورثات فكرية لديه، أو أنه كوّن رأيه هذا بالنظر إلى أنه اضطر إلى التعامل مع أناس شاءت قدرة الله عز وجل أن يكونوا من ذوي الأخلاق السيئة، وإن كان قد تمّ هذا الأمر، فإنه لا يعطيه المبرر لإصدار مثل هذا الحكم الجائر والبعيد كل البعد عن الإنصاف والعدل.

ثم إننا نتساءل، ونوجه السؤال لبيركهارت، ولكل منصف يبتغي الحقيقة: هل كانت الشعوب الأوربية في ذلك الوقت تتسم كلها بالتقوى والفضيلة والشرف والعدل، وتنتشر بينهم الأمانة؟ أم أن هذا يعتبر من الأمور النسبية عندهم؟

ومع ذلك نجد أن بيركهارت حاول أن يكون منصفاً وواقعياً نوعاً ما عندما عقد مقارنة بين أهل مكة وأهل المدينة.

فهو يرى أن أهل المدينة يعتبرون أقل مرحاً وحيوية من أهل مكة، ويظهر عليهم الكثير من الجد والوقار، كما أن ظاهرة التدين واضحة في المدينة أكثر منها في مكة، ويلاحظ الاهتمام باللياقة العامة والذوق العام

(١) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ٣٤٦.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لدى أهل المدينة أكثر من أهل مكة، وأن نساء المدينة أكثر حشمة والتزاماً بالآداب من نسوة مكة وجدة، ويمتاز أهل المدينة بالكرم الشديد أثناء الزيارات والضيافات، وإن كان يعتبرها من وسائل تحقيق الشهرة بين الناس، ويلاحظ أن أهل المدينة يبدون في الظاهر أكثر ثراء من أهل مكة، كما يلاحظ على أهل المدينة الإسراف بشكل عام كأهل مكة[١].

ب) رؤية بيرتن:

تبرز رؤية بيرتن المتسمة بالمدح المشوب بالذم من خلال النقاط التالية:

يقول بيرتن: (طباعهم مزاج من الكرم والبخل والإسراف والتقتير، وهذه الصفات نتاج رغبة في الفخر والتباهي)[٢].

وإذا ما أردنا التفصيل فإننا نستطيع استخلاص الصفات الحميدة والصفات غير الحميدة في نظر بيرتن.

الصفات الحميدة هي:

١) الوقار والرزانة في التصرف.

٢) مظهر اللياقة والذوق واضح جلي بين أهل المدينة.

٣) التظاهر بالفضيلة، فألسنتهم رطبة دائماً بالسلامات والعبارات الدينية، والاقتباسات القرآنية.

٤) التمسك بالشرف.

٥) معالم الفروسية والشهامة والشجاعة ظاهرة فيهم[٣].

---

(١) انظر: رحلات شبه جزيرة العرب ٣٥٣ -٣٥٤.

(٢) انظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ١٥٥/٢.

(٣) المصدر السابق، ١٥٣/٢ -١٥٤.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

٦) النساء شديدات في التزام الأدب والحشمة البالغة[١].

٧) البراعة في التحدث[٢].

أما الصفات التي يراها بيرتن غير حميدة فهي تتجلى في التالي:

١) الغرور: وهي صفة طارئة على أهل المدينة، ويصاحب الغرور الاعتداد الزائد بالنفس.

٢) الصرامة والتمسك بالشكليات التي هي ليست خلقاً عميقاً أصيلاً فيهم.

٣) سوء الخلق وذلك من خلال الصوت الصارخ، والشتائم الوافرة، والهوس الشديد، الذي يتجلى في الإشارات والتعبيرات والإيماءات.

٤) حب الانتقام المتسم بالحقد الشديد[٣].

٥) الكبرياء والفخر، حيث يغرس في نفوس الصبية أن المديني كائن مميز لابد أن يحترمه الآخرون مهما كان تافهاً. ويظهر هذا بشكل واضح عند استقبالهم للغرباء في أسواقهم، فإنهم يستقبلونهم بترفع ظاهر.

٦) الكسل وفتور الهمة، وذلك بالتسويف والمماطلة والتأجيل، وعدم أداء الأعمال في أوقاتها، فهم يعتبرون العمل صنعة لا تليق إلا بالعبيد، كما أنهم يرون في العمل اليدوي انحطاطاً معنوياً ومادياً.

٧) حب الأكل، بحيث إن زائر المدينة يمكنه أن يرى مختلف أنواع الأطعمة سواء أكانت مصرية أو تركية أو سورية أو فارسية أو هندية[٤].

---

(١) المصدر السابق، ٢٢/٢.

(٢) المصدر السابق، ١٥٣/٢.

(٣) المصدر السابق، ١٥٣/٢ -١٥٥

(٤) المصدر السابق، ١٤٦/٢ -١٤٧ -١٥٥

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

٨) المحاكاة وحب التقليد للآخرين، حيث عمد العرب إلى حلق لحاهم تقليداً للغرب والترك[١].

٩) التفاهة في الشخصية والبطالة، وهو عائد إلى الكسل وفتور الهمة.

١٠) عصبية المزاج لدى البدوي، وصفراوية المزاج لدى غير البدوي[٢].

هكذا بدا أهل المدينة عند بيرتن، ونحن سواء كنا موافقين له أو مخالفين له في رأيه، فإني أرى أن السبب في وجود مثل هذه الأخلاق غير الحميدة إنما مردّها إلى شيء واحد لا غير، ألا وهو: ضعف الوازع الديني لدى الناس، وإهمال التربية الدينية لدى الناشئة.

ومع ذلك فإننا نرى أن نظرة التحامل على أهل المدينة عند بيرتن واضحة جلية.

وإذا ما دققنا النظر في ما أبداه بيركهارت وبيرتن من رأي في أخلاقيات أهل المدينة فإننا نرى بينهما تشابهاً كبيراً، بل إننا لا نكاد نلمس فارقاً جوهرياً بينهما، فنظرتهما تقريباً واحدة ورأيهما واحد، وصفة الذم لديهما أوضح من صفة المدح.

الحالة الصحية في المدينة المنورة:

يلاحظ أن الوضع الصحي في المدينة كان متردياً جداً، فلا يوجد ذكر لأي من المستشفيات أو المراكز العلاجية، كما أن

(١) لقد علق بيرتن على هذه المسألة بشكل دقيق: فقد انتقد بيرتن فعل العرب بحلق لحاهم تقليداً للآخرين، وهو وهو يرى أن التوجيهات النبوية في هذه المسألة لو أنها التزمت لما فعل العرب ذلك، ونحن بدورنا نرى هذا الرأي، فالتزامنا بديننا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم أقوى دافع لدينا، فإذا عدم هذا الدافع وانعدم الالتزام فعلى الدنيا السلام، ونصبح غثاء كغثاء السيل كما قال صلى الله عليه وسلم.

(٢) انظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ١٤٩/٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الأطباء يندر وجودهم في هذه المدينة.

وتعود أسباب التردي الصحي في المدينة، وكثرة انتشار الأمراض المختلفة إلى أسباب كثيرة أبرزها:

١) سوء المناخ (من وجهة نظر بيركهارت).

٢) سوء المياه (من جهة نظر بيركهارت أيضاً) فطبيعة التربة والمياه المتسمتين بالملوحة، والمستنقعات التي تكوّنها مياه الأمطار حول المدينة، وربما أيضاً البخار المتصاعد من بساتين النخيل الكثيفة في المناطق المجاورة للمدينة، كل ذلك يجعل هواء المدينة غير مواتٍ للصحة كثيراً[1].

٣) سوء الأحوال الاقتصادية، والفقر الذي كان يعيش فيه أهل المدينة، يعتبر أيضاً من الأسباب المساعدة على سوء الأحوال الصحية.

٤) انعدام أساسيات المرافق للصرف الصحي، فوجود مستنقعات المياه مدعاة لانتشار الأمراض والأوبئة بمختلف أنواعها، وهذا هو الواقع في المدينة المنورة في ذلك الوقت.

٥) انعدام ما يسمى بالوعي والثقافة الصحية عند أهل المدينة، فقد كانوا يعيشون عيشة فطرية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، وحسب ثقافتهم البسيطة فإن كل شيء يجري بقدر، وما كان مقدراً فلا مفر منه.

أما أشهر الأمراض التي كانت شائعة في زمني بيركهارت وبيرتن، وطرق علاجها، فهي:

١) الحمى: وهي أكثر الأمراض شيوعاً، إذ يعاني منها كثير من السكان، وقلما يفلت منها الوافدون، وبخاصة في وقت الربيع.

وهي نوعان:

---

(١) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ٣٦٤.

أ - الحمى المعاودة: وغالباً ما تنتشر في الصيف، وإذا كانت مصحوبة بقيء أو تسمم كان لها ضحاياها، والعلاج الأساسي لها هو: الأشربة وعصير الفاكهة.

ب - الحمى الخفيفة: وعلاجها المعتاد يتمّ بإحراق البخور، وقراءة التعويذات في غرفة المريض[1].

٢) الدوسنتاريا: وهو من الأمراض المألوفة في موسم الفاكهة، وبخاصة لمن يقومون بتناول الفاكهة قبل نضجها.

ويعالج المصاب بالكي وهو الشائع، أو باستخدام المسهلات والقوابض البسيطة، كما يستخدمون أيضاً بذور القطن بعد تحميضهما وطحنها ووضعها في الماء الدافئ ليشربها المريض.

٣) اليرقان(المرة الصفراء): وهو من الأمراض الشائعة جداً.

وعلاجها يكون بإعطاء المريض آنية مليئة بالماء ويطلب منه أن ينظر فيها، بينما يقوم طارد الأرواح الشريرة بتلاوة الرقى، مع استخدام إبرتين يقوم (المشعوذ) بسحب رأسيهما من أذني المريض على طول عينيه و أسفل وجهه، ثم يغمس الدبوسين في الماء فيغدو مصفراً، وهناك علاج آخر، حيث يجعلون المريض ينظر في مرآة سحرية (هكذا) فيشفى المريض.

٤) اختلاف وظائف الكبد: وهو من الأمور الشائعة بين سكان المدينة.

٥) النزيف بدرجاته المتفاوتة: ويعاني منه كل الناس.

ويعالج المصاب بالنزيف بتناول وجبات من البيض والكراث، كما يستخدم له بعض العقاقير والأعشاب كلسان الحمل (نبات الأملج

(١) نلاحظ من خلال الحديث عن طرق علاج الأمراض انتشار الشعوذة والدجل بشكل واسع، وسوف نتطرق إليها بشكل أوسع في الحديث عن الناحية الدينية.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

.(Myrobalar

٦)الكوليرا الآسيوية (الريح الأصفر): فقد أصيبت بها المدينة أربع مرات، وألحقت بها أضراراً فادحة، وقضت في بعض الأحيان على أسر بأكملها.

ويعالج المصاب بالكوليرا بالنعناع، وعصير الليمون، وجرعات كثيرة من القهوة.

٧) الجدري: وأكثر ما يصاب به الأطفال، وإذا أصيب به كبار السن فإنه يقضي عليهم في الغالب، أما الشباب فقلمّا يصابون به.

ويطبّق على المصاب بالجدري ما يسمى (بالحجر الصحي) فيعزلون المريض في غرفة لوحده. والعلاج الوحيد الذي كان مستخدماً هو الكحل المسحوق، يشرب بعد وضعه في الماء، وتكحيل جفون العين اتقاء للعمى، وتناول وجبات من العدس وتمر البرني، وبعد مرور واحد وعشرين يوماً يستحم المريض بالملح والماء الفاتر.

٨) داء الكلب (الهيدروفوبيا): وهو نادر، ويحبس المصاب به بمفرده في غرفة لمدة أربعة أيام، وإذا استمر المصاب بالنباح كالكلب، فإنهم يسكبون عليه ماء مغلياً مخلوطاً برماد الخرائب.

٩) البرص: وأكثر ما يصيب الفقراء البائسين، وهو من الأمراض غير القابلة للشفاء.

١٠) القرحة: وهي شائعة في الحجاز، وفي كل شبه جزيرة العرب، ويؤدي استفحالها إلى الغرغرينة.

وتعالج القرحة في بداية أمرها بالكي الشديد، أمّا إذا استفحلت وتمّ بتر العضو المصاب فإنه يشيع بينهم استخدام العقاقير التالية: التوتيا، والزنجار(صدأ النحاس)، مع الراحة، والوجبات الجيدة، وتغيير الهواء.

أما الجروح الصغيرة فتعالج بالمراهم، وبخاصة البلسم المكي.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أما في حالة الجروح القاسية أو الأمراض المزمنة، فيؤمر المرضى بالانعزال في خيام سود، ويعيشون كبدو، ويشربون حليب النوق، مع عدم أداء أي عمل.

١١) فيلاريا العرق المدني (فارانتيت) لم يعد شائعاً.

١٢) الرمد: وهو نادر.

أما مرض الطاعون فلم يصب المدينة في وقت من الأوقات، وأهل المدينة يتباهون بذلك[1].

هذه هي أبرز الأمراض الشائعة في المدينة المنورة في الفترة التي زارها كل من بيركهارت وبيرتن.

الحالة الثقافية في المدينة المنورة:

أ) الحالة العلمية في زمن بيركهارت:

كان في المدينة المنورة عدد من الخطباء والمؤذنين والأئمة وغيرهم ممن ينتمون إلى هيئة العلماء بالمسجد النبوي، وكان علماء المدينة أكثر علماً وتبحراً من أقرانهم في مكة، وهذا عائد إلى أنه كان بالمدينة في ما مضى حركة علمية قوية، نتج عنها الكثير من المؤلفات القيمة.

أما الآن (زمن بيركهارت) فتبدو مظاهر العلم هنا أقل منها في مكة، فقد انصرف العرب من أهل المدينة عن الدراسة في أي مجال من مجالات المعرفة، أما الذين شوهدوا منصرفين إلى الدراسة وطلب العلم فهم قلة من الحجيج التركي الذين كانوا يستمعون إلى شروحات لبعض المسائل

(١) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ٣٦٤ -٣٦٥، ورحلة بيرتون إلى مصر والحجاز٢/٩٣ -٩٥.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الشرعية باللغة التركية[١].

أما عن أماكن تلقي العلم في المدينة فهي واحد من اثنين:

الأول: الحلقات العلمية، التي كانت واسعة الانتشار، وكان مقرها في المساجد، وفي ذلك يقول بيركهارت: (أعتقد أنه لا يوجد في العالم الإسلامي كله بلدة في سعة المدينة لا تعقد في مساجدها حلقات العلم، وفي الأزمنة الماضية كانت مساجد المدينة أيضاً لا تخلو من عقد حلقات العلم، ومما يؤكد ذلك وجود كثير من المؤسسات الخيرية قد أسست خصيصاً لهذا الغرض، ولازال العلماء يحصلون على الرواتب من هذه الأوقاف)[٢].

ومعروف أن في المسجد النبوي في الجانبين الشمالي والشمالي الغربي تكثر فيهما حلقات التعليم، حيث يجلس المعلمون مع الصبية في حلقات ليعلموهم مبادئ القراءة[٣].

ولم يكن حضور حلقات العلم مقصوراً على فئة دون أخرى من الناس، بل كان يحضرها بعض علية القوم من أهل المدينة، فعندما كان طوسون باشا في المدينة حرص أشد الحرص على الحضور بانتظام في حلقات الوعظ التي تعقد بالمسجد النبوي[٤].

الثاني: المدارس العامة:

أما المدارس العامة في المدينة فكانت قليلة جداً، ومع ذلك فقد وجد بالمدينة علماء متمكنون على درجة عالية من العلم، وهم يتفوقون في ذلك على أقرانهم في مكة.

---

(١) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ٣٢٣.

(٢) المصدر السابق، ٣٢٤.

(٣) المصدر السابق، ٣١٧.

(٤) المصدر السابق، ٣٢٣.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وقد أشار بيركهارت إلى أنه كان في زمنه ثلاث مدارس في المدينة، إحداها معطلة، وهذه المدارس هي:

١) المدرسة الحميدية(الحمدية): وهي مدرسة عامة لطيفة، وموقعها في شارع البلاط.

٢) مدرسة شبيهة بالمدرسة الحميدية (لم يسمها)، قريبة من المسجد النبوي، وفي هذه المدرسة يسكن شيخ الحرم[١].

3) مدرسة ملحقة بمسجد عمر رضي الله عنه في المناخة، وكانت معطلة، وتمّ تحويلها لتستخدم كمخزن ومأوى لجنود كثيرين[٢].

ويغلب على الدارسين من أهل المدينة الاهتمام بالعلوم الشرعية أكثر من الاهتمام بغيرها، ويرحلون من أجل ذلك إلى كل من دمشق والقاهرة، وقد ساعدهم على هذا وجود المؤسسات الخيرية المخصصة للإنفاق على الطلبة الوافدين من مختلف البلاد الإسلامية[٣].

أما المظاهر السلبية في الناحية العلمية حسب قول بيركهارت، فهي:

١) انعدام سوق الكتب بالمدينة، فليس في المدينة سوق عام للكتب، والكتب الوحيدة المعروضة (زمن بيركهارت) للبيع كانت موجودة في بعض محلات بيع الأقمشة بالتجزئة، بالقرب من باب السلام.

٢) عدم وجود مُؤلّفٍ حسب قوله كتب تاريخاً للعصر الذي عاش فيه، أو حتى وجود مذكرات مقتضبة عن المدينة في ذلك العصر، وهذا عائد إلى أن الأعمال الفكرية غير منتعشة في المدينة إلا في حدود ضيقة جداً، شأن

(١) المصدر السابق، ٣٠٠.

(٢) المصدر السابق، ٣٠٢.

(٣) المصدر السابق، ٣٥٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المدينة في ذلك شأن المناطق الحجازية الأخرى، ويكثر انتشار المكتبات الخاصة في المدينة، وبعضها على مستوى جيد، فقد كانت هناك مكتبة لأحد علماء المدينة تحتوي على ثلاثة آلاف مجلد تقريباً.

كما يكثر في المدينة انتشار المكتبات الوقفية، والتي تكون مهداة من قبل مؤسسيها للمسجد النبوي، أو لبعض المساجد، أو موقوفة على بعض الأسر. وهذا التصرف من قبل المؤسسين لهذه المكتبات لضمان بقائها والحفاظ عليها من ناحية، ولعدم نقلها من مكانها إلى مكان آخر، وليسهل الانتفاع بها من قبل طلبة العلم[١].

ب) الحالة العلمية في زمن بيرتن:

لا تكاد تختلف الحالة العلمية في زمن بيرتن عن سابقتها في زمن بيركهارت، وعلى الرغم من تعرض المكتبات للسلب على يد السلفيين(على حد زعمه)، فلا زالت هناك بعض المظاهر العلمية في المدينة. وأبرزها:

١) الحلقات العلمية، وكانت الأماكن المخصصة لجلسات العلم تقع بين بئر يسمى (زمزم) والرواق الشرقي للمسجد النبوي، فتنعقد جلسات العلم عادة في الصباح الباكر وفي المساء، حيث يتم تدارس الأفكار الجديدة[٢].

٢) المدارس العامة: فقد ذكر بيرتن أنه كان في المدينة مدرستان إلى جوار الحرم النبوي، وهما:

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) لم يوضح بيرتن ماذا يقصد بهذه الأفكار الجديدة التي يتم تدارسها في حلقات العلم، وهو مع ذلك لا يرى في هذه الحلقات أي فائدة تذكر. انظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ٥٨/٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أ) المدرسة المحمودية: نسبة للسلطان محمود.

ب) مدرسة بشير آغا.

وفي كلتا المدرستين مخزن كبير عامر بكتب التوحيد وغيره.

وكما هو الحال في زمن بيركهارت الاهتمام في الحلقات العلمية كان منصباً في غالبه على تعلم العلم الديني، ويتباهى أهل المدينة بكون بلدتهم مليئة بالعلم الديني (الشرعي).

أما العلوم الأخرى كالفلسفة والطب والحساب والجبر فهي نادرة، أو لا وجود لها تقريباً.

ومن أجل العلم الشرعي كان يتوجه الكثير من أبناء المدينة لطلب العلم في كل من دمشق والقاهرة، حيث يوجد في القاهرة على وجه الخصوص رواق في الجامع الأزهر يسمى: (رواق الحرمين) وهو مخصص للطلبة القادمين من مكة والمدينة.

كما يكثر أيضاً وجود مجموعات كتب شخصية، ومن أبرزها مجموعة نقيب الأشراف محمد جمال الليل، الذي كان أبوه مشهوراً في الهند.

كما تنتشر أيضاً المكتبات الوقفية التي كان غالبها يهدى إلى المسجد النبوي، كما كانت هناك بعض المكتبات الموقوفة لأسر بعينها[1].

ومع هذا كله، فقد كان الجهل ضارباً أطنابه بين كثير من مجتمعات أهل المدينة، وخاصة من كان يسكن منهم خارج المدينة المنورة، والذي كان له أكبر الأثر في انتشار كثير من المعتقدات والخرافات بين الناس، والذي سوف نتناوله في البحث القادم.

---

(١) انظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ١٥٧/٢ -١٥٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الحالة الدينية في المدينة المنورة:

نظراً للمكانة الخاصة التي تحتلها المدينة المنورة في قلوب المسلمين، فقد كان من الأمور البدهية أن يكون ساكنو المدينة على جانب من التدين والالتزام النابعين من التمسك بشعائر هذا الدين الحنيف، ومن محبتهم لنبيهم ﷺ، هذا التمسك وهذا الحب يدفع بالإنسان المسلم نحو الالتزام بأحكام هذا الدين، والتأدب مع سنة النبي ﷺ.

وكانت مظاهر التدين ظاهرة لدى أهل المدينة المنورة، وأشار إليها بيرتن خلال حديثه عن أهل المدينة المنورة، وتبرز في ما يلي:

أ) الالتزام بالمحافظة على أداء الصلاة جماعة.

ب) الابتعاد عن كل أنواع المنكرات، فلا يوجد أيّ أثر لأماكن البغاء، وإن وجدت بعض الحوادث فهي نادرة جداً، كما أنه لا أثر لصناعة الخمور في المدينة المنورة، وإن فعلها أحد فهو أحد الوافدين الأتراك، والابتعاد عن صناعة المسكرات ناتج عن رد فعل ديني لدى الناس، كما أن صانع الخمر عرضة للعقاب الشديد، والتشهير به لدى الناس؛ لذا فالإقدام على ارتكاب أي من هذه المنكرات له عواقب وخيمة، يتحاشى الناس الوقوع فيها[1].

ولكن مع هذا كله كانت هناك الكثير من الأمور المخالفة للشرع، كانتشار البدع والخرافات، وانتشار الطرق الصوفية، وكذلك وجود عدد من أتباع الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة.

وإليك تفصيل ذلك:

---

(١) انظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ١٥٤/٢ -١٥٥.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أولاً: انتشار الخرافات في المجتمع المدني.

فقد ذكر لنا كل من الرحالة الثلاثة عدداً من الخرافات التي كانت سائدة في المجتمع المدني أثناء زيارتهم للمدينة المنورة.

أ) الخرافات التي رآها أو سمعها فارتيما:

لقد ذكر فارتيما أنه رأى وسمع الناس يدّعون عدداً من الأمور المنافية للعقل، والتي لا يمكن لعاقل أن يصدقها، وهذه الادعاءات هي:

١ - الادعاء بأن رفات محمد ﷺ معلق في الهواء بمكة المكرمة.

وقد علّق فارتيما على ذلك بقوله: (فإن أولئك الذين يقولون بأن رفات محمد ﷺ معلق في الهواء بمدينة مكة المكرمة، كذابون يستحقون التوبيخ)[١].

٢ - الادعاء بوجود نور منبعث من ناحية بيت النبي ﷺ، واتهام كل من ليس له قدرة على رؤية هذا النور بعدم صدق العقيدة.

ومبعث ادعاء هذه الخرافة: أنه كان من الشائع لدى الناس (الجهلاء منهم) اعتقاد بإمكان رؤية الجسد الشريف لنبينا محمد ﷺ مقابل الأموال الطائلة التي يبذلها الراغب في ذلك، ومع هذا فليس كل من بذل المال نال مراده من الرؤية.

وبما أن الأمر ليس على الحقيقة، وتدافع الكثير من الناس على الإصرار على الرؤية، تمّ اختلاق خرافة النور المنبعث من جهة بيت النبي ﷺ.

ويبين فارتيما مصدر هذا الضوء، فيقول: (ويجب أن تعرف أن هذا الضوء ناتج عن نار أوقدوها ليجعلونا نعتقد أن نوراً ينبعث من قبر محمد ﷺ)[٢].

---

(١) انظر: رحلات فارتيما٤٣.

(٢) المصدر السابق، ٤٦.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ب) الخرافات التي سمعها أو رآها بيركهارت:

لم نلحظ عند بيركهارت التطرق إلى مثل هذه الأمور، ولكنه أشار إلى مسألة (كون قبر النبي ﷺ معلق في الهواء) وعلّق عليها بقوله: (إن الحكايات التي انتشرت في أوربا في يوم من الأيام عن كون قبر الرسول ﷺ معلق في الهواء غير معروفة في الحجاز، ولم أسمع بها في أيّ من بلدان الشرق، رغم كثرة الأحاديث المبالغة عن أعاجيب وفخامة هذا القبر، وقد انتشرت من قبل أولئك الذين زاروا المدينة ورغبوا في إضفاء الأهمية على أنفسهم بقص قصص خرافية عما رأوه)[(١)].

وهنا نلاحظ أن بيركهارت يشكك في أصل هذه القصة، بل وينفيها تماماً، ومن هنا يظهر لنا أن فارتيما إما أن يكون مبالغاً فيما ذكره، أو أنه لم يتثبت فيما سمعه من الآخرين.

ت)الخرافات التي رآها أو سمعها بيرتن:

أما بيرتن فيذكر الكثير من الخرافات التي كانت شائعة في زمنه، ومما ذكره:

١) وجود عمود نور يتوج قبر النبي ﷺ.

ويعلق بيرتن على هذه القصة بقوله: (وتبدو محاولة التزيين بالأضواء في مثل هذه الحالات بائسة، وقد يفسر ذلك أصل الفكرة الخرافية التي يعتقدها أهل المدينة عن عمود نور يتوج قبر النبي ﷺ)[(٢)].

٢) إضاءة شمعة أو مصباح بجوار مريض الجدري، فقد كان من الشائع عند جهال أهل المدينة مثل هذا الفعل، ويرون أن ذلك يبعد شبح

---

(١) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ٣٠٨.

(٢) انظر: رحلة بيرتن إلى مصر والحجاز ٥٤/٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الجنون الذي يسببه الخوف من الأرواح الشريرة بالنسبة للمريض.

٣) حرق صوف الأغنام في غرف المرضى بالجدري، حيث يظنون أن الدخان المنبعث ورائحة الصوف المحترق تبعد شبح الموت عن المريض، وذلك باتباع الموت لرائحة الدخان.

٤) نباح الكلب بدون سبب ظاهر بجوار منزل، معناه: أن أحد سكان المنزل سوف يموت؛ لأن الكلب ـ كما يقولون ـ يتعرف على شكل ملك الموت عزرائيل، وهو يرفرف فوق مسكن من حان قدره المشئوم؛ ولأن روح الإنسان الآثم كئيبة معتمة بسبب ما اقترف صاحبها من خطايا[١].

٥) الاعتقاد بأن أرواح الشهداء تغادر المباني إذا كانت خاوية من المعنى، أو كانت مشيدة من طين لا روح فيه[٢].

ويرى بيرتن أن هذا وأمثاله من ضروب الخيال البعيد عن الواقع، والذي لا يقبله عقل سليم بحال من الأحوال، ونحن نوافقه على ذلك.

ثانياً: البدع السائدة في المجتمع المدني:

بعد أن تحدثنا عن مرئيات الرحالة الثلاثة حول انتشار الخرافات في المجتمع المدني وأسباب انتشارها، نعقبها بالحديث عن البدع التي سادت في المجتمع المدني خلال فترات زيارة هؤلاء الرحالة إلى المدينة.

وهذه البدع في كثير منها يرقى إلى مستوى الشركيات التي نهى عنها الشارع الحكيم، والتي بعث محمد ﷺ للقضاء عليها وعلى أمثالها.

---

(١) المصدر السابق، ٩٣/٢. ونحن نقول بدورنا: إن مسألة الحياة والموت من الأمور الغيبية التي استأثر الله عز وجل بعلمها، فلا نباح كلب، ولا صوت رعد، ولا خسوف قمر، ولا كسوف شمس، أو غيرها من الظواهر الطبيعية يدل على موت أو إحياء أحد، فقد جاء بعدم علم أحد بهذا الأمر سوى الله عز وجل.(ولا تدري نفس ماذا تكسب غداه وما تدري نفس بأي أرض تموت).

(٢) انظر: رحلة بيرتن إلى مصر والحجاز، ١٣١/٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والإسلام جاء لمحاربة مثل هذه البدع، إلا أن تقادم العهد بالناس، وابتعادهم عن منهج الإسلام القويم، وعدم تمسكهم التمسك الصحيح بدينهم، جعل من السهل انتشار مثل هذه البدع والخرافات.

ومن هذه البدع التي كانت سائدة في زمن كل من الرحالة الثلاثة هي:

أ) البدع السائدة في زمن فارتميا:

كانت هناك بدعة سائدة في زمن فارتيما مؤداها: أن القبة الموجودة فوق قبر النبي ﷺ يمكن لشخص أن يطوف فيها[1].

ونحن نقول: إن الطواف ليس مشروعاً إلا حول الكعبة المشرفة، أما الطواف داخل قبة مبنية فوق قبر من القبور، فهو من الأمور المنهي عنها شرعاً؛ ولذلك كانت مشروعية عدم البناء على القبور أو تزيينها، والتي يخشى مع مرور الزمن أن يتحول الناس إلى عبادتها كما حصل مع الأقوام السابقة.

ب) البدع السائدة في زمن بيركهارت:

أما في زمن بيركهارت فقد كانت هناك بدع كثيرة انتشرت في المجتمع المدني، وهذه البدع هي:

١ -الاستشفاع بالرسول ﷺ قبل أداء الصلاة، وفي ذلك يقول بيركهارت: (فقد جرت العادة أن يذهب الزائر للمسجد النبوي كل يوم مرة على الأقل للدعاء أمام الشباك المواجه لقبر محمد ﷺ، ويؤدي أناس كثيرون ذلك بمجرد دخولهم المسجد النبوي، ومن القواعد المألوفة أيضاً: ألا يجلس الزائر في المسجد لأداء الصلوات اليومية المعتادة دون أن يتشفع بالنبي ﷺ رافعاً يديه موّجهاً وجهه صوب قبر الرسول ﷺ، وهذه العادة

(١) انظر: رحلات فارتيما ٤٤.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

نفسها شائعة في كثير من مساجد بلدان الشرق الأخرى التي تضم قبوراً لأولياء)[١].

٢ - التبرك بالمواضع:

يقول بيركهارت في ذلك: (في داخل مسجد قباء توجد مواضع كثيرة مباركة يقصدها الزوار، وفي كل موضع من هذه المواضع يصلي الزائر ركعتين، ثم يشرع في التوسل والدعاء متبركاً بالموضع، وأول ما رأيناه هنا مبرك الناقة، وهو أهمّ موضع في المسجد)[٢].

وهذه أبرز الأمور التي شاهدها بيركهارت من البدع التي يفعلها الناس، والتي ليس لها أساس من الشرع، بل إن الشرع نهى عنها.

ج) البدع السائدة في زمن بيرتن:

بالإضافة إلى ما ذكره بيركهارت فهناك أمور أخرى شاهدها بيرتن وكانت شائعة في زمنه، وهي:

١ - الاستشفاع بالأموات: ومن ذلك ما كان يفعله الزائرون لقبر حمزة رضي الله عنه من طلب المساعدة والمغفرة، فيقول: (وبعد ذلك طلبنا من حمزة وصحبه المساعدة في الحصول على الغفران، وأن نسعد في الدنيا

(١) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ٣١٥.

يشيع اعتقاد خاطئ لدى كثير من الناس في مسألة الاستشفاع بالرسول صلى الله عليه وسلم وهو طلب الشفاعة منه بعد انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، والصواب في هذه المسألة أنه يتوجه بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى، ويسألونه أن يبلغهم شفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة. أما طلب الشفاعة منه مباشرة بعد رحيله إلى جوار ربه فهذا مما نهى عنه الشارع..

(٢) المصدر السابق، ٣٣٨. والأمر هنا أنه لا يجوز الاعتقاد بأن البركة تحصل من مكان أو موضع بعينه، ولكن البركة تحصل من الله عز وجل، ولكن لو أن إنساناً فعل فعلاً من الأفعال قاصداً بفعله الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم سواء أكان عملاً من الأعمال، أو صلاة، أو غيرها من الأمور المشروعة فلا شيء في ذلك.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والآخرة)[١].

٢ - الاعتقاد بالنجوم: وهو من الأمور الشائعة في الحجاز، فقد كان لظهور الكوكب المتألق ذي الذنب في أفق السماء الغربي أثره الكبير في توهج تفكير أهل المدينة، فكما يذكر بيرتن بدأ الجميع يتنبئون بالفواجع كالحرب والمجاعة والطاعون، فلا زال المسلمون يعتقدون أن نجم الفواجع ينذر بالمصائب[٢].

٣ - الزيارة الرجبية: وتكون غالباً ما بين الثاني عشر إلى الخامس عشر من شهر رجب، وفيها يأتي الزوار بأعداد كبيرة إلى المدينة، حيث ينصبون خيامهم في السهل لمدة ثلاثة أيام أو أربعة يقضونها في الاحتفال والبهجة والصخب والصلاة والدعاء[٣].

٤ - السحر والشعوذة: وكانت هذه أيضاً من الأمور الشائعة بين الناس، وكانوا يستخدمون ذلك في علاج بعض الأمراض كاليرقان مثلاً[٤].

---

(١) انظر: رحلة بيرتن إلى مصر والحجاز ١٣١/٢.

(٢) المصدر السابق، ١٦١/٢.

مسألة الاعتقاد بالنجوم من المسائل التي حاربها الإسلام، ومحاربته لها إنما هي من باب أن النجم مخلوق من مخلوقات الله عز وجل لا يملك نفعاً ولا ضراً، ولا يقدم ولا يؤخر، فالاعتقاد بها يعتبر من الشرك الذي أنذر الله عز وجل فاعله بالعقاب الشديد يوم القيامة؛ ولأن الاعتقاد بمثل هذه الأمور يؤدي إلى نتيجة خطيرة هي: ضعف الإيمان بالقضاء والقدر الذي هو ركن من أركان الإسلام.

(٣) المصدر السابق، ١٢٨/٢.

لم يرد في ديننا الحنيف أن التعبد يكون مقبولاً في يوم دون آخر، أو في مكان دون آخر، ولكن الذي أمرنا به أن نحسن الإخلاص في عبادتنا لله عز وجل في أي وقت وفي أي مكان، دون تحديد لزمان أو مكان معينين.

(٤) المصدر السابق، ٩٤/٢.

مسألة تعاطي السحر وتصديق السحرة اعتبرها الإسلام من الأمور المكفرة التي تخرج صاحبها من الملة؛ لأن فيها تصديقاً بأمور كاذبة، كما أن فيها تكذيباً لما جاء عن ربنا سبحانه وتعالى، وما جاء به نبينا محمد =

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

هذه أبرز الأمور التي ذكرها بيرتن، وكانت شائعة عند أهل المدينة.

وأعود وأكرر القول مرة أخرى: إن الجهل وعدم التفقه الصحيح بأمور الدين هما من أبرز الأسباب التي تساعد على انتشار مثل هذه الأمور التي لا يقبلها عقل عاقل، ولا تزن في ميزان الشرع جناح بعوضة، وإذا كان هؤلاء المستشرقون قد جعلوها مثار نقد ودراسة، واعتبروها من الأمور المعيبة، فالأولى بنا نحن المسلمين أن ننقد أنفسنا أولاً، ونصلح ما بداخلنا ثانياً، فبذلك نفرض احترامنا على الآخرين، بل ربما يكون ذلك سبباً من أسباب هداية الآخرين إلى هذا الدين القويم.

الفرق والمذاهب في المدينة المنورة:

ينقسم أهل المدينة إلى قسمين تقريباً مع تغليب أحد الأقسام على الآخر. وهذان القسمان هما:

أولاً: أهل السنة، وهم غالب أهل المدينة، وهؤلاء بدورهم ينقسمون إلى مذهبين هما:

(أ)الأحناف: وهم يحتلون المرتبة الأولى في المدينة المنورة، كما هو الحال في معظم أنحاء العالم الإسلامي[1].

ب) الشافعية: وهم غالب البدو ومعظم أهل المدن[2].

= صلى الله عليه وسلم.

(١) يعود السبب في انتشار المذهب الحنفي في بقاع كثيرة من العالم الإسلامي إلى كون سلاطين الدولة العثمانية قد اتخذوا من مذهب أبي حنيفة النعمان رحمة الله عليه مذهباً لهم؛ ولذلك سعوا إلى نشره في كل مكان حكموا فيه، ولكنهم أيضاً لم يناصبوا أتباع المذاهب الأخرى العداء، بل كان هناك احترام متبادل بينهم تجمعهم جامعة واحدة هي الإسلام.

(٢) انظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز.١٤٣/٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ولأهل السنة قاض عام يسمى رئيس القضاة، ويكون معيناً من إستانبول، ويعمل تحت رئاسته ثلاثة مفتين:

١ - المفتي الحنفي.

٢ - المفتي الشافعي.

٣ - المفتي المالكي.

أما الحنبلي فلا وجود له سواء في المدينة أو في القاهرة.

ويتقاضى كل واحد من هؤلاء المفتين راتباً شهرياً يبلغ مئتين وخمسين قرشاً[١].

ثانياً: الشيعة، يقول بيرتن: (وسيلاحظ القارئ بدهشة أنه يوجد في أحد أهمّ الأماكن المقدسة عناصر مختلفة من الشيعة المنشقين، كبني حسين، وبني علي، والنخاولة)، وهناك من يقول بوجود الإباضية أيضاً، كما يوجد عدد من الزيود[٢]، وهي نفس الملاحظة التي لاحظها بيركهارت من قبله[٣].

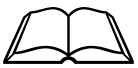

(١) المصدر السابق، ٨٤/٢.

(٢) المصدر السابق، ١٤٣/٢.

(٣) انظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ٣٤٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة